اللغة البيانية للخطابة

د. النوراني عبد الكريم كبور

يعمد الخطباء إلى انتقاء ألفاظهم – وإن كانوا في مقام الإرتجال، وارسال الكلام على البديهة – يستوحون بها المعاني ؛ فتأتي شافية، عميقة الأثر ؛ فاللغة رموز للمعاني والأفكار، والخطابة فن يقوم على الاستمالة والإقناع (١) باستثارة الخيال، وتأجيج المشاعر والانفعال، تؤدي اللفظة فيها دوراً محورياً ؛ فهي اللبنة في بناء العبارات، وتراكيب الجمل.

ولكل مقام عندهم مقال، ولكل حال عندهم له ضروب من الكلام لا يحسن فى غيره، فاختيار اللفظ لا يكون عفوا ؛ فيلبسون كل معنى ثوباً من اللفظ حسب الموطن الذي يُقال فيه. وهذا عبد الله بن عباس يردّ على معاوية بن أبي سفيان وقد سأله : يا ابن عباس ما منع عليّا أن يوجه بك حكما؟ فرد عليه بخطبة عصماء، انتقى لها ألفاظاً قوية، صاغها فى تراكيب متينة، حتّى لكأنه يُسمع منها قعقعة الألفاظ وصليلها، حيث يقول : «أما والله لو فعل لقرن عمْرا (٢) بمصعب من الإبل، يوجع كتفيه مِرَاسها، ولأذهلت عقله، واجرضته بريقة، وقدحت في سويداء قلبه، فلم يبرم أمرا ولم ينفض ترابا إلا كنت منه بمرأى ومسمع، فإن نكثه أرمَتُ قواه، وإن أرمه فصمت عراه يغرب مقول لا يُفلّ حدّه، وأصالة رأي كمتاح الأجل لا وَزَرَ منه، أصدع به أديمه، وأفلّ به شبا حدّه، واشحذ به عزائم المعتنز، وأريح به شُبَه الشاكين»(٣).

جاءت هذه الخطبة في مقام الفخر والإفحام، والدفاع عن الذات، وإظهار شرفها، فأتى بألفاظ قوية تنضح بها فيها من الدلالات، وصاغها في تراكيب متينة فكانت كالبنيان المرصوص. فالمصعب من الإبل أشدها شكيمة، وأكثرها قوة وشباباً، وهو الفحل العظيم، فوصف نفسه بذلك، وفي المقابل جعل عمرو بن العاص بمنزلة الحقة إلى جانب الفحل، أو الإنسان الضعيف في مواجهة جمل هائج، وهذا إشارة إلى نضجه الفكري، وتفوقه عليه لمزيته التي هي كمزية الفحل على سائر الحقاق.

وقوله «يوجع كتفيه» مراسها : أي لا يقوى على قيادته، وفي هذا إيماء إلى صعوبة اقناعه أو حمله على اتباع رأى ابن العاص، بمعنى أن ابن العاص ضعيف الحجة أمامه، قليل الحيلة حياله، وصوّر ذلك فى هيئة شخص يحاول أن يسوق فحلا من الإبل فلا يقوى عليه، على الرُّغم مما يبذله من جهد وحيل، ولكنه لا طاقة له به.

والإجراض بالريق ؛ كناية عن إلزامه الحجة، وإفحامه، وإغلاق منافذ القول عليه، وتدل العبارة على مرارة الإحساس بالهزيمة، والذهول عن المقارعة والمحاججة، وتعبّر عن حالة نفسية في غاية الاحباط لإنسان ضل عنه كل فكر يستعين به.

وأراد بالأرم والفصم – وهما من أوصاف الحبال – تصرفه في الرأي بحكمة ورجاحة عقل ؛ فهو شديد التأثير على خصمه، يتزعزع رأيه، ويسفّه أحلامه. ثم وصف كلامه بالسيف الصلب الذي لا يُفلّ، وهذا إشارة إلى أصالته وسعة علمه وسلامة منطقه، بل جعل كلامه كالأجل المقدّر المحتوم الذي لا ملجأ منه ولا خلاص، يفحم خصمه ويلجمه ويصدعه به حتى ليعيد القاصي المنعزل إلى حظيرته، ويمحو به ظلمه شكه وأوهامه.

وهكذا نرى أن معاني هذه الخطبة ليست جديدة ؛ فهي جارية في كلام العرب وطباعهم، ولكن الخطيب عمد إلى الألفاظ الموحية فألّف بينها، فجاءت لغته قوية، شديدة الإيحاء، نافذة عميقة الأثر، تسبر أغوار القلوب.

خطب الحسن بن عليّ يعنّف الناس على تأييدهم بني أمية، وخذلانهم عليّا رضي الله عنه : «وهو صاحبكم وعدوكم في بدر وأخواتها، جرّعكم رنقاً، وسقاكم علقا، وأذل رقابكم، وأشرقكم بريقكم، فلستم بملومين على بغضه، وأيم الله لا ترى أمة محمد (ص) خفضا ما كانت

سادتهم بني أمية ، ولقد وجّه الله إليكم فتنة لن تصدروا عنها حتى تهلكوا لطاعتكم طواغيتكم ، وانضوائكم إلي شياطينكم» (٤).

هذه الخطبة كسائر الخطب العربية في عصورها الزاهرة حافلة بالألفاظ الفصيحة المنتقاه بعناية للتعبير عن أفكار محددة يريدها المتكلم ؛ فهو يستعمل «جرّعكم» بدلا عن سقاكم ليدل على بشاعة ما أوردهم وأنه غير مستساغ ، واتبعه بالرنق وهو الكدر ليجعله دليلا على سوء ما أذاقهم ، ثم أردف بعبارة «سقاكم علقا» ، ولم يعطف على «جرّعكم» توسيعا لمعجمه اللغوي ، و«العلق» هو الدم ، والجملة كناية عن قتلهم وسفك دمائهم ، وقطع رؤسهم فتسيل الدماء في حلوقهم كأنهم يشربونها.

والإشراق بالريق أدلّ على شدة الخوف والانفعال ، والاضطراب ؛ فهى الفاظ ترسم المعنى بكل أبعادها ، وتصور الانفعالات النفسية .

ثم بيان الخزي والإنهماك في الضلال من خلال عبارة «طاعتكم طواغيتكم» ، فلم يقل سادتكم أو رؤساءكم ، بل جعلهم طواغيت ، وأبرزهم في هيئة الضعاف المستعبدين الذين لا يملكون من أمرهم شيئًا سوى الطاعة المهينة لدعاة الفساد .

وإذا عدنا إلى ألفاظ هذه الخطبة نجد التجانس الموسيقى الذي يزيد الكلام حلاوة ، ويكسوه المهابة ، مثل القافات والكافات في «سقاكم ، علقا ، رقابكم ، أشرقكم بريقكم» ، ودوي الطاءات والكافات في «تهلكوا ، لطاعتكم طواغيتكم» .

فهذه التراكيب المتينة المزدانة بجواهر الألفاظ تجعل من الخطابة نماذج عليا للبيان العربي ، ومورد من موارد اللغة لا ينضب .

وفي خطبة له أخرى يحذر أتباعه الفتنة قال: «فتلقون للرماح أُزُراً ، وللسيوف جَزَرا ، وللعمد حظاً ، وللسهام غرضا» (٥).

هذه الألفاظ تلقي ضوءاً قوياً على المعنى ، وتجلي الفكرة في عبارات موجزة مترعة بالمعاني ؛ «فتلقون بالرماح أزُرَا» الأُزُر جمع إزار وهو الثوب ، والمراد به أجسادهم تشبيها لها بالثياب التي تستر الرماح ، والجملة تعبير بيانى يحمل دلالات كثيرة مثل القتل ، والطعن بالرمح ، والموت شر ميتة فقد صاروا أُزُراً للرماح تختفي في أجسادهم وتستقر فيها ، وهي عبارة فيها ما فيها من الرهبة ، واستحضار صور القتل الفظيع .

« وللسيف جزرا» عبارة لا تقل عن سابقتها فى الدلالة على أسوأ القتل ، فالجزر هو التقطيع إربا ، حيث تعمل السيوف عملها في الأجساد بلا رحمة . وعبارة «للعمد حظاً» تعبير بيانى تعضّد الفكرة ، والعمد من آلات القتال ، فيحل بهم الموت والفناء واعتبارهم نصيب مقسوم لهذه الأسلحة لا مناص ، وهذا مما يفاقم إحساسهم بالخوف والفزع ، ويحملهم طوعا أو كرها لاعادة النظر فيما كانوا يفكرون فيه من الخروج إلى قتال معاوية .

ثم ختم خطبته بقوله : «وللسهام غرضا» ، والغرض: عمود يُنصب فيرميه الرماة بالنبال لأجل المران والتدرُّب ، وهكذا يكون المقاتل منهم قد صار غرضا لسهام الأعداء ، وما أخزى هذا التشبيه بالعود المنصوب الذي يدل على العجز ، وقلة الحيلة .

وهكذا تجيئ لغة الخطابة قوية ، زاخرة بالألفاظ والتراكيب التي تولّد المعاني في الأذهان فتكون لدلاتها في نفوسهم أبلغ الأثر ، فتظل أعناقهم لها خاضعين .

وترتقي لغة الخطابة العربية كلما اقترنت بلغة القرآن الكريم ، تقتبس من نظمه البديع ، ومعانيه الرفيعة ، إلى جانب تقوية الحجة والبيان ؛ فالخطابة مضمار فسيح يتسابق فيه البلغاء وروّاد صناعة الكلام ، يغترفون من بحره الفياض ، فجاءت خطبهم لوحات زاهية بالتراكيب الرائعة ، والمعاني التي تخلب العقول ، وتذهب بالألباب ، مما وضعت الخطابة في ذرى سنام الأدب العربي في هذه الفترة .

ومن ذلك خطبة السيدة أم كلثوم بنت عليّ تعاتب أهل الكوفة : «يا أهل الكوفة ، يا أهل الختر والخذل ، فلا رقأت العبرة ، ولا هدأت الرنّة ، إنما مثلكم كمثل التي تقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، وتتخذون أيمانكم دخلا بينكم ، ألا وهل فيكم إلاّ الصلف والشنق ، وملق الإماء ، غمز الأعداء ، وهل أنتم إلا كمَرْعِي على دمنة ، وكفضة على ملحودة ، ألا ساء ما قدمت أنفسكم أن سخط الله عليكم ، وفي العذاب أنتم خالدون ، أتبكون ؟ أي والله فابكوا ، وإنكم أحرياء بالبكاء ، فابكوا كثيرا ، واضحكوا قليلا ، فلقد

فزتم بعارها وشنارها ، ولن ترحضوها بغسل بعدها أبدا ، وأنى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة ، و معدن الرسالة ، و سيد شباب أهل الجنة ، ومنار حجّتكم ، ومِدْرَه حُجّتكم ، ومفرخ نازلتكم ، فتعسا ونَكسا ، لقد خاب السعي ، وخسرت الصفقة ، وبؤتم بغضب من الله ، وضربت عليكم الذلة والمسكنة ، لقد جئتم شيئًا إدّا ، تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض وتخرّ الجبال هدّا» (٦).

هذه الخطبة آية من سحر البيان في قوة ألفاظها ، وتماسكها ، واقتباسها البديع من الذكر الحكيم ، وهكذا البيان العربى يستمد جذوته ونضارته من القرآن الكريم ؛ فهو كجنة بربوة إن أصابها طل من آي كتاب الله آتت أكلها ضعفين ، فاللغة العربية تربة خصبة يخرج منها البلغاء للناس أثقالها .

والمتحدثة وصفت أهل الكوفة بالختر ، وهو أقبح الغدر ، ومثلتهم بريطة بنت سعد الخرقاء التي كانت تغزل طول يومها ثم تنقض ما غزلته(٧) ، والألفاظ مقتبسة من قوله تعالى چ□ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ چ (٨) ، وهذا المعاني المقتبسة تدل على وصفهم بالخرق ، وسوء التدبير مع فساد الاعتقاد وسوء النية .

والألفاظ مثل «الصلف» وهو التكبر ، و«الشنف» وهو الحقد ، و«الملق» وهو التملق ، تدل على معانيها بدقة حسب السياق إذ تصفهم بها وصفا أشبه بالوخز . ثم تبين عدم فائدتهم ، وأنهم لا رجاء فيهم حين مثلتهم بالفضة المحلّى بها ميت ، وهي – بلا شك – صورة مخزية تقلل من قيمتهم ، وتظهر تفاهتهم ، إلى جانب الصورة السابقة في تمثيلهم بالبهائم التى ترعى الدمن و تأكل الخمخم .

ثم تمثلهم بمن سخط الله عليهم ، وأخلدهم في النار بسوء أعمالهم ، اقتبست ذلك من قوله عز وجل چ□ □ □ □ □ □ □□ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ چ (٩) . وتقتبس قوله تعالى چ□ □ □ □ □ □ □ □ چ (١٠) لتؤكد على اغترارهم ، وركونهم إلى الدنيا ، وغبطتهم بها ، هذه العباراة تحمل معنى الوعيد بسوء العاقبة ، وبئس المنقلب .

و«الشنار» أقبح العيوب ، و«العار» المساوئ التى تلطخ الأعراض ؛ وجعلتهم يفوزون بها على سبيل التهكم والاستهزاء ، وكأنها غاية ما يطلبون ويطمحون إليه ، وكأنهم عادوا يحملون العار والشنار على رؤوسهم وهم يهتفون جذلا وغبطة . وبعد ذلك تشبههم باليهود الذين خابوا ورجعوا بغضب من الله وسخطه ، مقتبسة من قوله تعالى چ□ □ □ □ □ □ □ □□ چ (١١) ، وهو تعبير قوي تشعل نفوسهم غما وأسى ؛ فهم يدركون معنى الآية الكريمة و مراميها.

وتقتبس المتحدثة الوصف بشناعة الجرم من قوله المولى عزّ وجل چ□ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □□ □ چ (١٢) فهذا الوصف لا مزيد عليه ؛ فهم يستوحون من هذا الوصف كل المعانى المتعلقة بها ثم يغشاهم الخزي والصغار .

فهذه الخطبة حافلة بالألفاظ الفصيحة ذات الدلالات الوافية بالمعنى ، وقد جاءت في معظمها مقتبسة من الذكر الحكيم .

الأخيلة والصور فى الخطابة

أدت اللغة العربية دورا بارزا في الدعاية الكلامية سواءً في المجال السياسي ، أو الديني أبان قيام المذاهب الدينية ، وبما أن التلفاز وغيرها من الأجهزة التي تنقل الصورة والصوت لم تكن معروفة حينذاك فإن توظيف اللغة قد أسهم في نقل الصورة والحدث عبر التعبير الفني القائم على سبك العبارات ، وضرب الأمثلة ؛ فهذا الحجاج بن يوسف يخاطب في مسجد الكوفة : «وإني لأرى أبصارا طامحة ، وأعناقا متطاولة ، ورءوسا قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها ، وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى تترقرق . . . إنَّ أمير المؤمنين نثر كنانته بين يديه ؛ فعجم عيدانها فوجدني أمرّها عودا ، وأصلبها مكسرا فرماكم بي لأنكم طالما أوضعتم فى الفتن ، واضجعتم في مراقد الضلال وسننتم سنن الغي ، أما والله لألحونكم لحو العصا ، ولأقرعنكم قرع المروة ، ولأعصبنكم عصب السلمة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل ، فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرن بأنعم الله فأذاقها لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون» (١٣).

الصورة البلاغية في نضج الرؤوس تشبيها لها بالثمار ، ومجيئ وقت

قطفها وحصادها وهو من يقطفها ، ثم العطف بالواو على الترتيب يجعل الأمر متسلسلا وشيكا ، والتعبير مع طرافته وجدته فمعناه مرعب ، كما أنه نكّر الرؤوس ليمنح الصورة المزيد من الرهبة .

ثم ينقلهم إلى صورة هي أشد وقعا من الأولى ؛ وهى زعمه بأنه ينظر – حقيقة – إلى الدماء وهي تسيل بين العمائم واللحى ، فإن الخيال ينتقل ليشارك في تجسيم هذه الصورة التي يبثها الحجاج عبر أثير خطبته ، وكلمة «تترقرق» تنقل صوت الدماء وهي تسيل من الأوداج المقطوعة ، والأنسجة الممزقة والنفس تجود بالروح . وهذه صورة يقف لها شعر الرأس ، وترتجف لها الأبدان ، وتقشعر منها الجلود .

وقوله «عجم عيدانها فوجدني أمرها عودا . . .» كناية عن اختياره للمنصب بعد بلاء واختبار ؛ فالخليفة اختبر سهام كنانته – استعاره لرجال دولته – أيهم أقوى وأصلب فكان هو ، ثم وضعه في قوس ورمى به أهل العراق ، وهذا تمثيل بارع لنفسه ؛ فهو أشد رجال الخليفة مراسا وأكثرهم بأسا فاختاره لأهل العراق ، وعبارة «فرماكم بي» تعبير بياني تحمل مضامين عدّة ؛ فهو سهم مسدد عن قوس الخليفة ، والسهم لا يُرمى به بغرض السلم ونحوه ، بل بهدف القتل والاصطياد ، وعاقبة من يعترضه وخيمة ؛ إذن فقد جاء إليهم مفوّقا لا رحمة معه ، ولا خير فيه ، وهذا نذير شقاء وبؤس لأهل الكوفة خاصة والعراق عامة ، فتسري فيهم تيار الخوف كلّما اجترت أخيلتهم هذا الوصف العجيب .

ثم يصفهم بأنهم يسرعون إلى الفتن ، وهذا يدل على شغفهم بها والتباسهم بمسبباتها ، وصورة الإسراع صورة متحركة تنبئ عن الإنهماك والسعي الحثيث ، مجسّما الفتن في هيئة شئ محبب عندهم فيجدّون السير إليه .

وقوله «أضّجعتم في مراقد الضلال» والإضّجاع الرقاد للراحة ، أو النوم والاستسلام له ، والصورة أعجب من سابقتها ؛ فهاهم يضّجعون في مراقد الضلال ، وهذا يشير إلى شدة التزامهم سبل الضلال وليس السير في طرقها وحسب ، بل والنوم والرقاد في مراقدها واعتكافهم فيها ، وهي صورة ترتسم في أذهانهم بأبعادها ومراميها البعيدة .

ويمضي في رسم صورة أشد بشاعة فيلحوهم لحو العصا ، أي يسلخ جلودهم مثلما تُسلخ لحا الأشجار ، ويقرّعهم قرع المروة ، والمروة صخرة توري نارا متى ضربت بقوة ؛ فهو ينزل بهم ضربا هائلا مثلما تُقرع الصخرة لتوري نارا ، ولفظ «القرع» أكثر دلالة على الضرب القوي على شئ صلب مما يدل على قسوته في أخذهم ، ويحزمهم مثل حزم السلمة ، وهو الحطب ، وهذا تشبيه في غاية الهوان والتحقير ، حيث يأسرهم ، ويشدهم بالحبال ويفعل بهم ما يشاء باعتبارهم ضعافا لا حول لهم ولا قوة . ويضربهم ضرب غرائب الإبل ، و ضرب غرائب الإبل أمر عظيم لا يجهله السامعون ؛ فالإبل العطشى التي تفلت من قطيعها – فى انتظار دورها – لتشرب مع قطيع آخر يضربها صاحب القطيع ضربا فاحشا حتى تنسى عطشها وتسرع عائدة إلى قطيعها .

وصور لحو العصا ، وقرع المروة ، وحزم السلمة ، وضرب غرائب الإبل كلها صور ماثلة للعيان ، يراها الأعرابي في ذلك الوقت في كل حين ، لأنها جزء من حياتهم ؛ فهم يألفونها ، وهذا يجعل وقعها عظيما ، لأنهم يدركون حقيقة الصورة إدراك مجرب فمجرد تفكيرهم في أنهم سيكونون ضحايا لهذه الأفعال يجعل أحساسهم بالقهر والرعب أمراً لا يُطاق.

ثم يمثلهم بأهل القرية التى وردت في قوله تعالى ﭽ□ □ □ □ □ □ □
□ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ □ □ □ □ □ □ □ □
□ □ □ □ □ﭼ (١٤) ، ذكر القرطبي في تفسيره (١٥) أن الرسول (ص) دعا على مشركى قريش فقال : «اللهم أشدد وطأتك على مضر واجعل عليهم سنين كسني يوسف» (١٦) ؛ فابتلوا بالقحط حتي أكلوا العظام ، ومعنى هذه الآية ليس ببعيد عن أذهانهم ، وهو يتوعّدهم بمثل ما حل بمضر من العذاب والجوع والهوان ، وهذا الوعيد له ما بعده من الشر وسوء المنقلب .

وعليه فقد أدى الحجاج خطبته أداءً فنيا عاليا ، موظفا التشبيهات والاستعارات والكنايات في ترك أثرا لا يمحى في وعي سامعيه ، وتظل كلماته هذه تقرع آذانهم فى كل حين ، وتظل تلك الصور تتراءى لهم على الرغم منهم .

ومن ذلك خطبة أبي جعفر المنصور

حين فتك بأبي مسلم الخرساني فقال: «أيها الناس لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية . . . إنه من نازعنا عروة هذا القميص أجزرناه خبئ هذا الغمد» (١٧) .

مما يقوي النهي فى مستهل هذه الخطبة تلك الصورة البيانية ؛ فقد جعل الطاعة مكان أمين تستأنس به النفس ، وتطيب فيه الروح ، وجعل المعصية مكان موحش لا تطيقه النفس ، وهكذا يكون النهي بليغا ؛ فقد رغّب في الطاعة بتلك الصورة ، و نفّر من المعصية ، ومنظر الخروج من النعيم والدعة والدخول في الشقاء والمحن من الاستعارات المعبّرة التي لا يجد المرء مشقة في تحليلها والاطمئنان إليها .

وفي تهديد صريح للخصوم من المعارضين يتوعّدهم بالقتل والهلاك ، ويعبّر عن ذلك من خلال صورة فنية طريفة ، هي الاستعارة في تشبيه الخلافة بالقميص ، فمن حاول منازعتهم فيها جعلوه طعاما لسيوفهم في قوله «من نازعنا عروة هذا القميص أجزرناه خبئ هذا الغمد» ، وخبئ الغمد كناية عن السيف لأنه يخبئ في غمده ، «وأحزرناه» لفظ يدل على التقطيع والتمزيق بلا رحمة أو روية .

وهكذا يكون المعنى قد بلغ واضحا جليا ، وتظل الصور البلاغية الدالة عليه حية محفورة في الوجدان يستحضرها المتلقي متى شاء ؛ فتكون أقوى رادع له ، يفت في عضده.

ومن ذلك أيضا خطبة داؤود بن عليّ عم السفاح منتشيا بقيام دولة بني العباس : «أيها الناس: الآن أقشعت حنادس الدنيا ، وانكشف غطاؤها ، وأشرقت أرضها وسماؤها ، وطلعت الشمس من مطلعها ، وبزغ القمر من مبزغه ، وأخذ القوس باريها ، وعاد السهم إلى النزعة ، ورجع الحق إلى نصابه . أيها الناس : إنّا والله ما خرجنا في طلب هذا الأمر لنكثر لجينا ولا عقيانا ، ولانحفر نهرا ولا نبني قصرا ، وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا ، والغضب لبني عمنا ، وما كرثنا من أموركم ، وبهظنا من شؤونكم ، ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحن في فرشنا ، ويشتد علينا سيرة بني أمية فيكم» (١٨) .

انقشاع الظلام ؛ زواله مدحورا بضياء قوي مبهر ، وأراد بالظلام بني أمية ، وبالضياء بني عباس على سبيل الاستعارة ؛ فصوّر الأمر في صورة حية ماثلة للعيان . ولا يخفى ما ينطوي عليه التعبير من تحقير وازدراء الأمويين ، والفخر بالعباسيين وتعلية شأنهم ؛ فهم الضياء الذي أشرق في السماء والارض ، وهم الشمس التي طلعت من موضعها الطبيعي ، وهم القمر الذي يزغ من أفقه المعهود ، وكل ذلك تمثيل لأنفسهم على سبيل الاستعارة وهم يتولون مقاليد الحكم باعتبارهم الحكام الجدد الذين أعادوا الأمور إلى طبيعتها.

وعبارة «أخذ القوس با ريها» مثل يضرب لمن تولّى أمرا يحسنه ويتقنه دون غيره ، وهو مثل ضربه لاستيلاتهم على الحكم من خصومهم الأمويين . وجملة «عاد السهم إلى النزعة» مثل يضرب لرجوع الحق إلى أهله ، وهو ما عناه بأيلولة الخلافة إليهم .

وهذه الأمثال تصور المعنى وتعمقه ، وتجعل أثره قويا مقنعا ، وهذه الصور تتزاحم في المخيلة ، وتلقي أضواء كاشفة على المعاني والأفكار التي قامت عليها الخطبة .

وفي قوله «لنكثر لجينا ، ولا عقيانا ، ولا نحفر نهرا ، ولا نبني قصرا» استدعاء للذاكرة ، والمخازي المختزنة في أذهان الناس عن الأمويين ؛ فتلك العبارات تجعلهم يستحضرون الأموال الطائلة التي اغتصبها ولاة بني أمية ، والقصور الفارهة التي بنوها لأنفسهم ، والأنهار التي شقوها إلى تلك القصور إمعانا فى الترف والأبهة ، ويربط كل ذلك بسبب ثورتهم ؛ وهو الغضب لحقهم في الخلافة ، وغضبا لبني عمهم من العلويين ، وما أغضبهم من ظلم الأمويين للناس .

وعبارة «ترمضنا في فرشنا» تعبير بياني بديع ، فقد تحوّل الفراش إلى رمضاء حارقة يصعب النوم فيه أو الراحة ، وهو صورة بيانية معبّرة عن الهم ، والغم ، والقلق ، والانشغال بآلام الناس وأمانيهم .

وعبارة «يشتد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم» تعبير بياني آخر يجعل سوء سيرة الأمويين بمثابة المرض الذي يشتد ويتفاقم ، ويستدعي العلاج والاستئصال.

ولعل الخطيب قد أفلح في استمالة سامعيه من خلال هذه الخطبة الحافلة بالصور البيانية القوية التأثير والإيحاء .

المعنى المجرد حين يرد في لفظه الحقيقي لا يعدو أن يكون خبرا ، أو

إخبارا وحينئذ لا يكون له التأثير البياني الذي يتميز بالعمق ، ولكن حين يأتي في ألفاظ موحية فأنها تصور المعنى تصويرا بليغا ، والخطب العربية في عصورها الزاهرة تعتمد على هذه الناحية التصويرية في كشف المعاني ، خاصة في مواضع الترغيب والترهيب ، وهنا تبرز أهمية اختيار الألفاظ ، والربط بينهما في خلق الصورة المؤثرة في النفوس ؛ فهذا عبد الله بن عباس يرد على زياد بن سمية : «لو رمتها لوجدت من دونها فئة صدقا صبرا على البلاء ، لا يخيمون عن اللقاء فلعركوك بكلاكلهم ، ووطئوك بمناسمهم ، وأوجروك مَشَق رماحهم ، وشفار سيوفهم ، ووخز أسنتهم ، حتى تشهد بسوء ما أتيت ، وتتبين ضياع الحزم فيما جنيت»(١٩) .

العرك والطحن من الألفاظ القوية الإيحاء في الدلالة على المعنى ، و«الكلاكل» هي الصدور الضخمة ، وهي لفظة ترسم في الذهن صورة مرعبة ، فالأمر يتجاوز صورة الجمل الهائل بكلكله الضخم إلى هذا الفعل الرهيب وهو العرك بالصدور الذى يؤدي إلى السحق والعذاب والموت ، واللفظان متحدان في توسيع دائرة المعنى عن طريق هذه الصورة الحسية الناشئة عن الاستعارة .

والوطء بالمنسم يآزر المعنى السابق ، ويضفي معنى الإهانة ، والذلة والغلبة الساحقة ؛ فالمنسم خف البعير ، والعرب تدرك أثر الوطء به ، والمعنى لا يقف عند ذلك الحد بل يتعداه إلى الاحتقار المهين ، والاستعارة تجسد هذا الفعل الشنيع .

و«أوجروك» طعنوك في فمك ، وياله من لفظ يجعل للمعنى طعما مميتا ؛ فالرماح الطويلة المشوقة لا تقع في الاضلاع والنحور ، ولكنها تلج الأفواه ؛ فالطعن بالرماح في الأفواه أمر لا يطيقه الفكر ، ولا تقدر على تحمُّل تخيله النفوس – مع واقعيته – فهو أمر مروّع ، مجرد التفكير فيه يبعث على الرعب ، وقبل أن يخرج الخيال عن صدمة تصور ما تفعله الرماح تقتحمه صورة السهام المتعطشة وهي تنغرس في الأجساد .

ثم رماه بالطيش والتغرير في قوله «ضياع الحزم فيما جنيت» ؛ فهذه الاستعارة ترمز إلى الغفلة ، وعدم تحكيم العقل في اصطناع الحزم فيما عزم عليه ، وهي عبارة تدل بجلاء على الحمق .

وعليه فإن هذه الخطبة رادعة عميقة التأثير ، تثير المشاعر والانفعال ، وما كان يتحقق لها ذلك لولا استعمال الألفاظ الموحية ، وسبكها فى صور بيانية تفي بالمعاني والأفكار .

وتحوّلت صنعة الخطابة عند كثير من الخطباء خلال هذه الحقبة إلى أعمال فنية باهرة ، تثير الخيال وتلهب الوجدان بما تلقيه في الروع من معاني وصور . ولا يتفق للخطيب ذلك إلا إذا إتكأ على حسن اختيار الألفاظ ، وألّف بينهما بملكته البيانية . وهذا يشهد للغة العربية بالتفوق ، والمقدرة الكبيرة على أداء المعاني والأفكار ، فلا غرو أن نزل بها القرآن العظيم لتكون خالدة ، ولتكون لغة دين ودولة وأدب ، ولغة أهل الجنة .

وقد برع الخطباء في استعمال اللغة وتوظيفها لأداء معانيهم في قوالب بديعة مؤثرة ، وهذا يعطي للأدب العربي والخطابة خاصة فضل الريادة .

وهذا عتبة بن أبي سفيان يخاطب أهل مصر مهدداً ومقرعاً: «يا حاملي ألأم أنوف ركّبت بين أعين ، وإنما قلّمت أظافري عنكم ليلين مسى إياكم وسألتكم صلاحكم لكم ، إذ كان فسادكم راجعا عليكم ، فأما إذا أبيتم إلا الطعن على الأمراء ، والعتب على السلف والخلفاء ، فو الله لأقطعن بطون السياط على ظهوركم ، فإن حسمت مستشرى دائكم ، وإلا فالسيف من ورائكم ، فكم من عظة لنا قد صمّت عنها آذانكم ، وزجرة منّا قد مجّتها قلوبكم ، ولست أبخل عليكم بالعقوبة إذا جدتم علينا بالمعصية» (٢٠) .

وصفهم باللؤم ، والعبارة نفسها تحمل معاني الازدراء ، وجعل من الأنف دليل لؤم وخبث ، ولفظ «ركّبت» تصل بالوصف إلى غاية التحقير والهوان . و«قلّمت أظفاري» كناية رائعة ، فقد أبرز نفسه فى صور سبع مفترس ، ولكنه يعاملهم بإحسان ورفق ، وهو ما عبّر عنه بقوله «ليلين مسي إياكم» ، ولفظ «المس» دليل على اللين والتلطّف ، وهو هنا أظهرهم في صورة المرضى أو الأطفال ، أو الضعاف الذين لو شاء لمزقهم شر ممزق .

ولا تخفى روعة المقابلة بين الألفاظ وأثرها البليغ في تدعيم المعنى في قوله «سألتكم صلاحكم لكم إذ كان فسادكم راجعا إليكم» . وعبارة «لأقطعن بطون

السياط على ظهوركم» كناية عن الجلد الشديد ، ولفظ «الجلد» ليس له أثر مثلما للعبارة السالفة ؛ فالسياط تنهال على الظهور في تتابع شرس حتى تتقطع وتتمزق ؛ فإذا كان هذا هو شأن السياط فما بالك بظهورهم ؟ لا شك أن الصورة مرعبة ، لا تكاد تفلت عن الأذهان بسهولة .

والمراد بالداء ما هم فيه من ثلب الحكام وسبهم ، سماه «داء» على سبيل الاستعارة ، وهذا ينزل جرمهم إلى أقصى دركات المساوئ بحيث يستحيل إلى مرض وبائي يستشري بينهم لا يستأصله إلا إلهاب ظهورهم بالسياط ، أو الاختراط بالسيف ، وهو ما أفصح عنه بقوله «فالسيف من ورائكم» ، وهو كناية عن القتل ، وعبارة «من ورائكم» تعني أن العذاب محيط بهم فلا نجاة ؛ فالسوط من أمامهم والسيف من ورائهم ، وهذا أبلغ في التهديد والوعيد مع ما في التعبير من التدرج فى العقوبة .

وصوّر العناد والرفض في تعبير بياني جميل في قوله: «وزجرة منّ قد مجتها آذانكم» و «المجّ» لفظ الماء من الفم بعيدا ، وهي استعارة عن الرفض وعدم القبول ، والاصرار على التمادي في الغي ، ولا شك أن الخيال يسترسل في رسم هذه الصورة متناسيا الاستعارة ، وهذا ما يجعل التعبير قويا نافذا .

ثم يحسن تركيب الألفاظ في عبارات بليغة تجلي المعنى في صور متحركة تفصح عن مكنونها ، في قوله «ولست أبخل عليكم بالعقوبة إذا جدتم علينا بالمعصية» فالمقابلة بين «أبخل ، العقوبة – جدتم ، المعصية» وما فيها من استعارات جعلت للعبارات قيمة بيانية عظيمة ؛ فعدم البخل بالعقوبة يستدعي السخاء بكل أنواع العقوبات في مقابل الجود بالمعصية ، والمراد بها اتيانها واغترافها ، وبلاغة الاستعارة قائمة على تجسيم المعنوى في المعصية والعقوبة .

وهذه الخطبة أبلغ في الوعيد والزجر الذى يرقى إلى درجة الترويع .

خاتمة

جاءت الخطابة في هذين العصرين ؛ الأموي و العباسي قوية معبرة عن الحياة و قضايا الإنسان ، و قد عالجت الكثير من القضايا الاجتماعية و السياسية و الدينية ، و قد كانت أداة فاعلة في التعبير ، و في الإعلام حينذاك .

و قد تناولنا في دراستنا السابقة شيئا قليلا من النواحي الإبداعية في تلك الخطب و هي الأنماط البيانية في الخطابة العربية ، التي لن نوفها حقها لضيق المقام .

و قد توصلت هذه الدراسة المقتضبة إلى بعض النتائج اهمها :

١/ قامت الخطابة العربية في هذه الفترة على استعمال الألفاظ الفصيحة القوية الموحية ، و ذلك نسبة لمحاكاة الخطباء لأهل البادية ، و اصطناعهم أساليب الجاهليين ، و تقمصهم شخصياتهم ، و استعارتهم طرقهم في صوغ الكلام ، و أدائهم اللغوي .

٢/ اعتمدت الخطابة على الأسلوب التصويري في أداء المعاني ، فاستعان الخطباء بالصور البيانية التي تسهم في تشكيل تلك الصور .

٣/ الاقتباس من القرآن الكريم ، و ضرب الأمثلة ، منحت الخطابة جمالا و تأثيرا ، و خلودا ، و جعلت منها فنا أدبيا راقيا يزاحم الشعر في مكانته التي عرف بها .

٤/ الخطابة العربية في العصرين ؛ الاموي و العباسي حفظ لنا الكثير من تراثنا اللغوي و الأدبي ، و لولا الخطابة لضاعت ثلث اللغة .

الهوامش :

١/ الخطابة العربية في عصرها الذهبي ، إحسان النص ، (ط٢) ، دار المعرف ، القاهرة ـ مصر ، بدون تاريخ ، ص : ٥

٢/ يريد : عمرو بن العاص الذي اختاره معاوية بن أبي سفيان حكما عنه في مسألة التحكيم

٣/ شرح نهج البلاغة ، أبو حامد عز الدين هبة الله بن محمد بن أبي الحديد المعتزلي ، دار المعارف ، القاهرة ـ مصر ، ١٣٢٩هـ ، م ٢ / ص : ١٠٥ .

٤/ المصدر السابق ، م ٤ / ص : ٤ .

٥/ مروج الذهب و معادن الجوهر ، أبو الحسن بن علي بن الحسين بن علي المسعودي ، المكتبة العصرية ، بيروت ـ لبنان ، (ط١) ، سنة ٢٠٠٥ م ، ج٢/ ص : ٥٣ .

٦/ جمهرة خطب العرب ، أحمد زكي

صفوت ، المكتبة العلمية ، بيروت - لبنان ، بدون تاريخ ، ج٢/ص١٣٦ .

٧/ تفسير البيضاوي ، عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة - مصر ، تحقيق : مجدي فتحي السيد / ياسر سليمان أبو شادي ، بدون تاريخ ، ج١ / ٧٠٦ .

٨/ سورة النحل ، الآية : ٩٢ .

٩/ سورة المائدة ، الآية : ٨٠ .

١٠/ سورة التوبة ، الآية : ٨٢ .

١١/ سورة آل عمران ، الآية : ١١٢ .

١٢/ سورة مريم الآية : ٨٩ .

١٣/ العقد الفريد ، أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبدربه ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، (ط١) ، ١٤٠٤هـ ، ج٢/ ١٥٣ - عيون الاخبار ، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري مطبعة دار الكتب ، مصر - القاهرة ، ١٩٢٥م ، ج٢/ص٢٤٤ .

١٤/ سورة النحل ، الآية : ١١٢ .

١٥/ الجامع لأحكام القرآن ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الانصاري القرطبي ، تحقيق : عماد زكي أبو شادي / خيري سعيد ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة - مصر ، بدون تاريخ ، ج١٠/ ص : ١٦٠ .

١٦/ صحيح البخاري ، محمد بن إسماعيل البخاري ، مطبعة بولاق ، مصر - القاهرة ، سنة ١٣١٤هـ ، كتاب : الأذان ، باب : يهوي بالتكبير حين يسجد .

١٧/ تاريخ الطبري ، محمد بن جرير الطبري ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، (ط٢) ، دار المعارف - مصر ، سنة ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧ م ، ج٩/ ص : ٣١٣ .

١٨/ المصدر السابق ، ج٩/ ١٢٦ .

١٩/ شرح نهج البلاغة ، م٢/ ص : ١٠٥ .

٢٠/ العقد الفريد ، ج٢ / ص : ١٥٩ .

المصادر و المراجع :

١/ تاريخ الطبري ، محمد بن جرير الطبري ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، (ط٢) ، دار المعارف - مصر ، سنة ١٣٨٧هـ ، سنة ١٩٦٧ م .

٢/ تفسير البيضاوي ، عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة - مصر ، تحقيق : مجدي فتحي السيد / ياسر سليمان أبو شادي ، بدون تاريخ .

٣/ الجامع لأحكام القرآن ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الانصاري القرطبي ، تحقيق : عماد زكي أبو شادي / خيري سعيد ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة - مصر ، بدون تاريخ .

٤/ جمهرة خطب العرب ، أحمد زكي صفوت ، المكتبة العلمية ، بيروت - لبنان ، بدون تاريخ .

٥/ الخطابة العربية في عصرها الذهبي ، إحسان النص ، (ط٢) ، دار المعرف ، القاهرة - مصر ، بدون تاريخ .

٦/ شرح نهج البلاغة ، أبو حامد عز الدين هبة الله بن محمد بن أبي الحديد المعتزلي ، دار المعارف ، القاهرة - مصر ، ١٣٢٩هـ .

٧/ صحيح البخاري ، محمد بن إسماعيل البخاري ، مطبعة بولاق ، مصر - القاهرة ،١٣١٤هـ .

٨/ العقد الفريد ، أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبدربه ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، (ط١) ، ١٤٠٤هـ .

٩/ عيون الاخبار ، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، مطبعة دار الكتب ، مصر - القاهرة ، ١٩٢٥م .

١٠/ مروج الذهب و معادن الجوهر ، أبو الحسن بن علي بن الحسين بن علي المسعودي ، المكتبة العصرية ، بيروت - لبنان ، (ط١) ، سنة ٢٠٠٥ م .